الباب الثانى

أصل الانسان والتطور الخالق

وقوة الحياة ...

ذكرنا فى الباب الأول قصة اعتقاد شو ، وكيف ظهر فى العالم الخارجى ، وهذا الباب يحاول تفسير هذا الاعتقاد لأهميته ، ولأنه مفتاح لغزه المغلق .

ولنبدأ القصة بأن نضرب للقارىء مثلا فنقول : إن رجلا يعتقد اعتقاداً جازماً بقصة الخلق وأسبابها ، ويقبل النتائج المنطقيـــة التى يتوصل اليها بطريق التفكير المنظم والبحث المستمر ، لا شك أنه سيفعل مثلما فعل جورج برنارد شو .

وماذا عساه أن يفعل ؟ إنه لا شك سيجاهر الناس بهذا الرأى ويعززه ببراهينه وأدلته التى توصل اليها ، وقد تكون هذه البراهين والأدلة دامغة أو واهية . فإن كانت دامغة ثبتت فى أذهنة الناس وسببت للعقائد الأخرى عواصف وزوابع ، وقد تقتلعها من جذورها وتلقى بها بعيداً إلى الأعماق والأغوار وتحتل مكانها ردحاً من الزمان ، وقد تستمر فى مكانها خالدة صامـدة ، وقد تهب عليها عواصف وزوابع جديدة تلقى بها إلى جوار ما مات من عقائد وما اندثر منها فى بئر الفناء ..

وقد تكون هذه البراهين واهية لا تلبث أن تظهر فى الأفق ثم لا تحتمل الظهور لحرارة الجو الذى تعيش فيه هنيهة أو هنيهات فتموت كالهوام أو تضمحل كالبخـار ...

وإن رجلا آخر ، يدفعه حبه لمعرفة الحق ، فيقبل الحقائق ، ولـكنه يشك فى القصة ذاتها ، لا شك أنه أيضاً سيفعل مثل ما فعل شو ..

ذلك لأن الشك سيساوره ، ويتسلط على ذهنه ، وينظر إلى الحقائق نظرة كلها ريبة وغموض . وهو محق فى شكه ووهمه ، لأن قصة الخلق لا تزال غامضة ، وإن المقدمات والشروح التى عرضها الفلاسفة والمفكرون ، وعرضتها الـكتب المنزلة ذاتها لا تزال هى الأخرى فى غموض وغموض .

وما جاء في هذه العروض والشروح والمقدمات ، وفى هذه الكتب جميعها غير حوادث سردت فى هيئة حقائق عساها تلقى أمامه بقبس ضئيل من نور يبدد له ظلمات المستقبل ..

ومن حق القارىء أن يتمهل معى ، ويسير وإياى متتبعاً الكلمات بدقة ، حتى لا يضيع منه مفتاح السر المغلق ، ويتعثر بالصعوبات التى ستصادفه فى طريقه الوعر الشائك ، ومن هذه الصعوبات :

(أولا) صعوبة الرأى المبتسر الذى يظهر دائما عند ما يفسر رجل عقيدة رجل آخر لانه من الطبيعى أن الرجل الذى يدين بعقيدة تخالف عقيدة ذلك الرجل الآخر ، لا شك أنه إذا أراد أن يصفها ويعطيها حقها من التحليل ، فهو يعمد جاهداً إلى تشويه معالمها والحط منها ..

ولنضرب لذلك مثلا فنقول : إن لبرنارد شو عقيدة خاصة أوجدها لنفسه ، وهو وإن كان قد نشأ مسيحيا ، فى أسرة مسيحية متعصبة ، يحاول أن يجد لمذهبه مكانا مرموقا . فيشوه عقيدة المسيحيين السامية ، ويحط من شأنها وشأنهم فيقول :

« يعتقد المسيحيون بأن العالم خلق عام ٤٠٠٤ قبل المسيح . وأن الجحيم معناه نار كبريت حامية موقدة إلى الأبد ، وأنه إذا كان الحبل بلا دنس فمعنى ذلك أن الجنس خاطىء ، وأن المسيح ولد من عذراء بتول لم تعرف رجلا ، وأن هذه العذراء من نسل عذراوات أخرى تسلسلن فى خط طويل ينتهى بحواء . وأن الثالوث المقدس تجسدت له ثلاثة رءوس وهى فى الواقع رأس واحدة ، وأن الخبز والنبيذ فى مذابح روما المقدسة يصيران لحما ودما . وفى انجلترا ، لا يزالان فى طريقة غامضة ، يتحولان حقاً أو لا يتحولان بتاتاً . وأن الإنجيل كتاب مقدس على دقيق منزه عن الخطأ ، وكتاب تاريخى ،

وحصن حصين للخلق القويم . والبشر كذابون مراءون وقتلة سفاكون ... »

ثم يستمر برنارد شو ليعرض عقيدته فيقول :

« إذن فالمدنية الحديثة لا يمكن أن تغنم السلامة على أيدى اناس يعتقدون فى هذه الأشياء . أما المتبصرون سواء أكانوا رجال دين أو ملاحدة، فإنهم يخرجون بشىء واحد ، وهو أن اعتقاد كهذا لا يمكن أن ترتكز عليه دعائم الدين ..

فتعليم الطفل لا يمكن أن يأتى بثمرة طيبة إذا ترك فى أيديهم ..

وإذا كانت المذاهب المناهضة بعضها لبعض ككنيسة انجلترا ، أو كنيسة روما أو الكنيسة اليونانية وغيرها تصر فى محاولتها أن تتسلط على العقل البشري ، هذا التسلط الغريب فى حدود هذه الاعتقادات الطبيعية ، فيجب أذن ألا يندس هؤلاء فى المدارس حتى يكتشفوا الروح الحقيقية التى تختفى فى كل تعليم أو مذهب ... (مقدمات صفحة ٥١٧)

وهذا يصور الالحاد أجمل تصوير ، أو لعله يصور الصعوبة فى ثوب قشيب . وهو على كل حال كفر وإلحاد . ولكنى وعدتك أيها القارىء أن أكون نزيها معك ، فرغم أننى قبطى أرثوذكسى ، احترم عقيدة ديني وأتفانى فيها ، كما تحترم أنت دينك وتتفانى فيه ، سمحت لنفسى أن ألقى بعقيدتى جانباً ، وأشرح لك الموقف شرحاً دقيقاً مفصلا مبتدئا بمهاجمة برناردشو لعقيدته الديانة المسيحية . وواجب المؤرخ الحق ، والبحاثة النزيه ألا تؤثر فيه عواصف الالحاد أو يستثير غضبا من طعن غيره دينه أو عقيدته ، وذلك عملا على اكتمال نضجنا الذهنى والفلسفى ...

وأنت تعرف أنه من العسير أن ينزع الإنسان منا جلد صاحب

الاعتقاد بسهولة أو بأين . أما الطريق الصحيح الذى سنشره فهو طريق البحث بحذر شديد .

(ثانيا) صعوبة التعثر فيما يسميه الناس « اعتقادا » فلقد أصبحت كلمة اعتقاد كلمة عفى عليها الزمان ، وأنها وكلمة « مذهب » كلمتان أوشكتا أن تفقدا معناهما . حتى أن كثيرا من الناس اصبحوا لا يعتقدون فى الاعتقادات والمذاهب التى ورثوها فضعف إيمانهم ، وفترت همتهم وتخبطوا فى وهاد الإفك والكفر خبط عشواء .

ومن العسير أيضا أن نفسر حال الاعتقاد عند هؤلاء الذين يعتنقون الشك مذهبا على الدوام ، اذا لم يرتكن على أسباب ونظريات .

ولكن من السهل أن أفسر لك مذهب برنارد شو واعتقاده فى الوجود ، أو على الأقل أصف لك بنود هذا الاعتقاد وصفا مجملا شاملا .

ومن الضرورى جدا أن أطلعك على مدى تأثير هذا الاعتقاد على برنارد شو نفسه وتسلطه عليه ، حتى أنه أصبح يدين به . .

فكثيرون من الرجال لهم آراء خاصة فى التطور أو فى قوة الحياة ، مثلهم فى ذلك مثل برنارد شو . ولكنهم لا يعتنقون هذه الآراء من حيث هى مذاهب واعتقادات . وفى هذه الحالة يخالفهم شو . . .

إنهم يؤمنون بالتطور ، وهو يعتقد فى التطور كذلك . .

وهم يعتقدون أن التطور شىء حدث منذ ملايين السنين ، وليست لهم به أية علاقة ولكنه يعتقد أن التطور شىء يحدث اليوم ، وله به كل علاقة . بل «إن التطور هو نفسه » ، « وهو التطور ذاته . . » ، وكلا الاثنين يكونان الحياة . .

واعتقاد برنارد شو فى « قوة الحياة » يعتمد على نظريات . أما نظرته إلى « التطور الخالق » فيختلف عن نظرة برجسون اليه . ويظهر أن الاثنين توصلا الى نقط تماثل بعضها بعض وان كان كل منهما مستقلا عن الآخر تمام الاستقلال . وأظهر كل واحد منهما هذه النقط بطريقته الخاصة التى عرف بها . ولكن « شو » كان الأول فى الميدان ومعه مئات من الحقائق والأمثلة . يضرب خيامه ليبشر بدينه الجديد

فى صورة جامدة من كل زاوية من زوايا اهتمام البشرية بمثل هذه الموضوعات الفلسفية . . .

وجاء برجسون أخيراً بنظريات مشابهة وبفكرته الفذة عن الزمن . وبحذر شديد وضع قصته فى صورة مجردة ، وابتـــدأ بوصف إلهة أسماها « لادوريه » وأبرز معها إلهاً غريباً أسماه « الناشط السرمدى » وجعلهما مسئولين عن كل شىء . أو حرفياً عن كل شىء . وكان هذا براعـة منه وحذقا . . فالإلهة لادوريه فى هيئتها مخلوقة فاتنة ساحرة . ولـكن لا أثر لها فى رأى برنارد شو عن التطور الخالق . أو أنه لا يدرك أهميتها ، أو أهمية الصعوبات التى تدخل فى دائرة النظريات التطورية عند ما يهمل أصحابها وضع كابح للزمن الذى يفقدون زمامه بعدم ترو لإنتاج الرجل والأميبا .

أما برجسون فقـد كان على علم بكل شىء ، ولـكن شو لم تستهوه غير الحقائق فتركها للزمن يرعاها ويتعهدها ويفعل بها ما يشاء . .

وفـكرة « التطور الخالق » تعتمد ، من الناحية الأولية ، على الحقائق الموضوعة من وقت لآخر ، موازرة لنظرية تطور الأنواع التدريجى . ولا علاقة لها بالحقائق الأخرى التى لها أثر مباشر فى التطور التدريجى للعالم جميعه . .

وكان ظهور هذه النظرية حوالى عام ١٨٥٩ عنـــد ما طبع العلامة تشارلس دارون كتابه المشهور « أصـــل الأنواع » ولأول مرة فى التاريخ طرحت نظرية التطور على بساط البحث العلمى المحض . .

وبالطبع كانت هناك محاولات متعددة لوضع النظرية وضعاً صحيحاً مرتكزاً على قوانين علمية لا تقبل المناقشة بأعوام وقرون ، ولـكن هذه المحاولة قدر لها أن تجد آذاناً صاغية ونفوساً واعية ، فهزت رتاج العالم وأصبحت حـديث أوربا فترة طويلة من الزمن . .

وكان دارون من علماء المدرسة القديمة . وقد قال فى صدد كتابه هذا ونظريته : هذا ما يحدث ، وهذه هى أسباب الحدوث . .

وترك العبارة لغيره ليبحث فيما يحدث وفى أسباب الحدوث !.

وكان أيضاً مزهواً فخوراً لبراعة النظرية وما سببته من قلق واضطراب فى النفوس وما يحوط عالمها من غرائب وعجائب . وكيف أن الحقائق التى جمعها تمشت مع نظريته فى سهولة ولين ، ولكنه لم يفقد نفسه فى سبيلها ويتنحى عن عقيدته الأصلية ـ المسيحية ـ كما فعل برنارد شو !..

وذلك لأنه عرف أنه مهما صادف من نجاح فى تفسير النظرية . فلن يستطيع بحال من الأحوال أن يجيبك على هذا السؤال الذى يظهر لك كأنه لا شىء . وفى مدلوله معان كثيرة . وهذا السؤال هو مثلا : ما هى الدجاجة ؟ ولماذا هى دجاجة ؟

وكثيرون من المعجبين بالنظريات الفلسفية كنظرية التطور مثلا لا يجدون صعوبة تذكر فى الرد على هذا السؤال وغيره من الأسئلة المشابهة ، لأنهم يتظللون وراء ظل كثيف من شروح الفيلسوف صاحب النظرية . وكلها شروح دورية لا تبتدىء بدليل ولا تنتهى بإقناع ..

وهؤلاء المعجبون المفتونون بسحر النظرية بدأوا يساهمون بقسط كبير فى الصحافة العلمية فى تفسير كل ما يتعلق بالجزيئيات والتدييات وغيرها .. وبين علم دارون وعلم هؤلاء نمت فروع كثيرة زرعها هؤلاء الذين أرادوا أن يحصلوا على شىء ذى فائدة يفسر القوى فيدجون الفروض العلمية فى هيئة دين !!

ولعل هذه الأغصان الكثيرة التى تشعبت فجأة ونمت فى شجرة الكفر والإلحاد استهوت أنظار الكثيرين منهم صمويل بكلر . وأبسن وويلز لوقت قصير ، وبرجسون وغيرهم ..

ولكن القصة فيما يظهر ، أو كما ظهرت ، كانت مقلوبة الأوضاع . فالبطل فى أعلى القمة وحيد متنسك بينما فى أسفل الشجرة شيطان يتخبط فى الجذور . وإذا تتبعت تاريخ هذه الجذور وجدتها ترجع إلى الوراء خمسة آلاف سنة ، ثم تمتد بك إلى ملايين السنين ثم إلى ما وراء الدهور والعصور ثم إلى ما وراء الوراء ، حتى يتشعب بك الطريق فتضل معالمه وتتخبط فى بيداء لا نقف لها على أفق . ويستمر

بك السير فى ضباب الزمن الكثيف حتى تقف أو تتخيل شيئاً واحداً لا معنى له ، فلا هو مكان . ولا هو زمان ، ولكنه شيء معقـــد بينهما لا أجزاء له ، ولكنه احتمال لا صفة له على الإطلاق . غير أنه حركة دائبة لا تتوقف . هذا الشيء هو السر المطلق ، لا يمكن وصفـه ، وإن كان فى الإمكان تصويره فى غير وضوح فى هذه الأحقاب البعيدة الغور ، الغامضة المعالم .. يمكننا إذن القول بأنها « قوة تغلى فى مرجل على الدوام » أو « دوامـة مستديمة لا نعرف طاقتها » أو « قوة أزلية سرمدية دائمة .. »

ومن هذه القوة الهـائلة التى لاتتوقف أو يعرف مدارها ، لا يمكن أن يكون هنـاك مجال للقيم أو للشر أو للخـــير . لا شيء غير القوة المتبرمة الدائمة الفوران السرمدية . . !

ويجب ألا نخلط بين هذه القوة وبين غيرها من القوى الميكانيـكية والآلية التى ولدت فى أول طوفان تطايرت منه الذرات وتنـــاثرت فى الفضـاء فكونت الذريرات .

ولا يجب أن نحققها بالقوة الضرورية التى ظهرت فيما بعد على هـذه الأرض كقوة أساسية عملت بتوسع فى الذريرات التى خلقتها مصادفة .

أما القوة الرئيسية فلها مكانها الخلق البعيد . وهى السبب السهو الذى أوجد هذه القوى الإضافية .

وهى ليست منفردة بذاتها عن هذه القوى الإضافية . ولـكنها عن عمى تحافظ على نفسها ، مندمجة تمام الإندماج فى ذاتها . .

إذن فعلى ضوء هذه النظرية ، انطلقت الخلية الأولى ، مرتعشة متذبذبة فى الحياة على هذا الـكوكب ، أتته مصادفة ، لأن قوة الحياة نفسها لم تـكن لتعرف شيئاً عنها . لقد ولدت مصادفة . .

ولا هى ذاتها ، ولا الذين تبعوها كانوا يعرفون عنها شيئا . . . وكل ما عرفوه أنهم ظهروا فى الحياة ، وتركوا مع الزمن ثم تدهوروا وماتوا .

فعلوا ذلك من أجل المحافظة على هذه القوى المجربة العمياء التى تذبذبت هنا وهناك ، وعملت طريقها فى كل مكان ، تحرك الأغصان الأخرى عاليا وعاليا وعاليا.

قوة لا تموت ، وهى تنتقل من طور إلى طور من الوالدين إلى الأبناء ، ومن الأبناء إلى الاحفاد ، وتتشعب إلى فروع لا آخر لها ، وتورث مخلوقاتها صفات متعددة أخذت كل صفة تحافظ على بقائها على تعاقب الأجيال . .

إذن فى بدء عصر المخلوقات ، كانت الارتباكات شديدة ومتقلبة ، والتطورات المستمرة تعمل عملها فى المخلوقات الجديدة . كما كانت التيارات الشديدة التى هبت على العالم كعصور الطوفان والغمر والثليج ناجمة عن هذه الارتباكات .

وقد عملت على انقراض أنواع من النبات والحيوان ، كما كانت الوحوش الكبيرة الهائلة الحجم تفترس بعضها البعض ، تدفعها هذه القوة الجبارة التى عملت عملها فيها وأورثتها صفة « حب الحياة » .

وقوة الاندفاع هذه ، قوة التسلط ، ما هى إلا قوة ضرورية ايجابية . يدفعها دافع التمتع بالحياة إلى تنازع البقاء .

فأكلة الأعشاب تزحف على قوائم أربع ، وقد اعتراها جوع شديد يدفعها هاتف داخلى قسراً إلى القضاء على هذا الجوع بأكل أوراق الشجر التى سبق أن أهمل أكله أجدادها ، ولكنها لحاجتها تندفع إليه بافتراس ووحشية فتلتهمه عن آخره وتتزاحم عليه بالمناكب هى وزميلاتها ، فمنها من يموت جوعا وتطؤه الحيوانات الأخرى ، ومنها من يتغلب فينجو من الهلاك ويقدر له البقاء والتناسل ومعه صفات جديدة يورثها نسله .

وتوالت القرون وانطمست معالمها مع الدهر . ووجد النسل الذى تسلسل من هـــذه الحيوانات التى كافحت فى الحياة أن أوراق الأشجار أصبحت بعيدة المنال فيعود إلى طريقه سلفه « الكفاح المعيشة » ويندفع بغريزته إلى مد رقبتـــه محتالا للوصول إلى أوراق النبات فينجح فى بلوغ الفروع العليا للشجرة مثلا ، وهو وذريته قد يهلكون ، إن آجلا أو عاجلا ، فى الطريق نفسه ، ولكن رقبة

أحدها لا نلبث أن تتحور فتنقسم فيها الخلايا ، وتمتد الرقبة تدريجيا حتى تولد الزرافة برقبة طويلة جداً .

وهكذا تتحرك الحياة من دوحة إلى دوحة ، بقوة وعزيمة تتجدد على الدوام لتكتسب حصانة ومرانة .

وتستمر الحياة فى سيرها تحمل معها آثار القوى المنصرفة فى القرون الغابرة فى حربها مع الطاقات الجديدة لقوى الحياة .

ومن الغرائز التى تورثها الحياة لنوع معين من الناس ، فتخلقهم رجالا أفذاذا يفهمون الحياة الفهم الصحيح ، هؤلاء هم المفكرون الذين تكسبهم الحياة فكرا لودعيا جبارا ، فتخرج من أدمغتهم الأفكار وهم هنا يبتدعون ويخلقون ...

فى نهاية القرن التاسع عشر اكتشف بعض هؤلاء القادة ماهية « الغرض الأسمى » وفى أوربا وأمريكا ظهر أفراد نادوا بأن الجنس أعظم وافضل من الفرد ، الأصل أعظم من الفرع »

وهؤلاء الرجال الجدد الذين سموا بالتطور الخالق سموا عظيما هم لاشك ورثة الأجيال الذين بهم تهدف قوة الحياة إلى الكمال المنشود .

هذا هو أساس عقيدة برناردشو وأساس فلسفته ، أو بمعنى آخر خلاصة لخلاصة قصة الخلق الجديدة ، أو تفسير التفسير التدرج الأدنى .

وهب برناردشو نفسه لهذا الاعتقاد ، لأن القصة مسلية وجذابة وطريفة . وكانت فى بادىء الأمر لا يعرفها الا نفر قليل من المثقفين ثقافات عليا فى إبان عام ١٨٨٠ ولكنها اليوم أصبحت نظرية فلسفية يدرسها نفر كثير من محبي الوقوف على أسرار الكون والوجود ، بل لقد تقدمت النظرية تقدما ملموسا وأصبحت فى مثل شهرة جورج برناردشو !!

وعلى كل حال فنظرية التطور الخالق نظامها وتدرجها خلال الأجيال محاولة ركيكة لكنها نافعة لوضع مقدمة لمقدمة كتاب برنارد شو المشهور « الرجوع إلى متوشالح » ذلك الكتاب الذى يجب أن يعود اليه طلاب المعرفة إذا أرادوا أن يدرسوا اعتقاد برنارد شو مرة أخرى .

أو فليعودوا إلى برجسون ليعرفوا أن :

«الحياة هي محاولة لتحرر الطاقة وهي تستخدم القوى والمادة وتتحرر في حركة حرة مستمرة . وبفعلها هذا تصبح حرة على الدوام . وأول ما تعمله أن تنقل حركتها إلى المادة . وهذه الحركة تتحول إلى نظام شمسي لتختزن في المادة الكاورو فيلية طاقة حرارية لتخرجها في انبثاق واندفاق نحو خلق الأشياء . . كما أن القوة الدافعة للحياة تعمل في طريقها بدون توقف . وإن كانت في جوهرها قوة متعثرة تقوم وتكبو ، وتتسرب وتصطدم ، ولكنها تحاول مرة وراء مرة . . . »

أو فليقرأوا للعلامة روزنبرج هذا الرأي :

« إن حاسة جديدة للحياة تدفع نفسها بغرائزها البدائية إلى السطح . وتتخذ في ذلك هيئة أو هيئات معينة . طريقة جديدة للحياة تولد ثم تبدأ تتحول إلى هيئات أخرى متباينة ، بقيم معينة ، وممارسة دائبة النظام . . »

أوفليعودوا إلى عدد مجلة « الطبيعة » الصادر في ٧ ديسمبر عام ١٩٢٥ ليقرأوا :

« إن العلم لم يحرر الفكر الآدمي من ربقة التقاليد فحسب ، بل جعله يدرك التطور الدائم ، ووهب الإنسانية فلسفة جديدة للحياة . . . »

وإذا أراد المطلع أو القارىء المزيد ، فسوف يجد أن برجسون عند ما غدا فيلسوفا كبيرا ، يشق طريقه بهدوء ، ويصور قصة الخلق في بوتقة . ويصيغها في شكل جذاب يأتي بكلمات متدفقة كالسيل المنهمر ، ولكنها منفردة المعاني ! ! .

كذلك سيجد أن روزنبرج يقفز إلى المسرح ليعرض على الناس منه قصة قوة الحياة لملايين البشر في قصته الخالدة « أسطورة القرن العشرين » ، وفيها يقص قصة نشاط خلية جديدة تطرق بمطرقة عنيفة تحاول جاهدة أن تدمج أرواح الناس في روح جنس واحـــد عظيم . . . إلى غير هذه الدراسات الغريبة التي يضل الفرد في ديارها الواسعة وأشواكها الكاوية . .

ولعل رأي برناردشو إذا قارناه بهذه السلسلة الطويلة من آراء الفلاسفة المتطرفين لوجدناه أقوى منها ، وألفناه أجدر بالدراسة . وإن كان يسير في هالة من غموض كمعظم الفلاسفة والمفكرين . وقد يطلق سهامه وأفكاره من نفس القلعة التي احتمى

بها لامارك وداروين ولكن بطريقة تخالف طرقهم . فهو يؤمن بما يدعيه ويجاهر الناس به . . أما الآخرون فما كانوا يعتقدون بقصة قوة الحياة بكل ما عندها من طاقات حرارية وجهد متواصل . . . أو بمعنى آخر إنهم لم يمزجوا رأيهم بعقيدتهم الأصلية . . أى أنهم لم يتحولوا من عقيدتهم الأولى إلى الجهر بدينهم الجديد . . .

ويظهر أن برنارد شو فى بادىء أمره قبل قصة الخلق أو ما يشبهها ، ثم سأل نفسه هذا السؤال :

كيف جئت ؟!

وإذ رأى أن الكلمتين ثابتتان لا تتحركان من مكانهما أو تفصحان أو تدليان بشىء عاد إلى القصة يمحصها من جديد ، ويقلبها على جميع الوجوه ، ويظل على حاله هذا يواصل أبحاثه ، ويتحيف الألم فى سبيل الوصول إلى شىء معين . فلا تسعفه الذاكرة بشىء . . . ولا يجديه التخمين والحدس . ولكنه يشعر فجأة بأنه أصبح رجلا فى المجتمع الإنسانى ذا مكانة ملحوظة . . . ظهر فى عالم مستمر الحركة دائما لا يتوقف .

تطلع برنارد شو أمامه فإذا بلافتة كبيرة كتب عليها بالخط العريض ، هذا الطريق إلى السماء ، فوقف يتخيل طريق السماء . . أين هو وكيف يكون . . ثم ذكره ذلك بمقال قديم قرأه عام ١٨٨٠ يقول فيه صاحبه ، اتبع ضميرك فهو طريقك الوحيد إلى السماء . . ،

ومن هنا نشأ النضال واستقام البحث . . .

إنه عنوان مغر لرجل حديث العهد بكل شىء . . . يتخبط فى وهاد الحياة على غير هدى . . .

فآل على نفسه أن يفسر لغز الحياة ، ويكشف القناع عن سرها الرهيب من عام ١٨٧٥ إلى يومنا هذا ، وهو فى كفاح مستمر مع تلك الفكرة التى خامرته ، واقتنع بها ، وأخذ يدونها فى كتبه ومقالاته وأحاديثه الخ . . .

وكتاباته كلها مجموعة حقائق علمية لتجربة رجل واحد عاش مع الحياة . . .

وفى كثير من الأحايين نجد أن ملاحظاته كانت من القوة بمكان أو من الدقة البالغة بحيث لا ينكرها عليه إنسان . .

وقد يقول قائل : لا يمكنك أن تطلق على هذه الأبحاث والتجاريب أبحاثاً وتجاريب علمية بحتة لأنها تفتقر إلى معمل وإلى قوانين رياضية خاصة ، وثمة قول خاطىء من أساسه ، لأن كل رجل يدون تجاربه الدقيقة وبطريقة صادقة لا تعرف الالتواء ، لا يمكن أن يرقى اليها الشك أو يتطرق اليها الكذب أو المغالاة . وهذا هو إذن العالم الحق . . . والشاعر المرهف الحس . . وبرنارد شو يجمع بين الاثنين العالم والشاعر ، عالم دقيق الملاحظة ، وشاعر صادق الحس . . وأعماله وآثاره أكبر دليل قوى على صدق ما نقول . . ومسرحياته تشهد لك بالنبوغ والعبقرية وتنوع التجارب وتعددها . . .

برنارد شو للرسام اوجستس جون